الصراع اللغوى

اللغة كما سبق تقريره فى مواضع عدة كائن حى ، يجرى عليه ما يجرى على سائر الكائنات الحية ، من عوارض مكانية وزمانية ، فهى تمر فى نشأتها بأحداث الطفولة ، ثم تشب عن الطوق لتعيش فترة من الشباب والتحفز ، ثم تكتمل أداتها ، وتغنى بعناصر القوة والثراء ، ثم تشيخ فى نهاية الأمر ، وقد ينتهى أمرها إلى الموت أو الانقراض .

واللغة ليست كائنا منعزلا يعيش فى فراغ ، وإنما هى كائن اجتماعى ، يتغذى من الأحداث الاجتماعية ، ويتأثر بعوامل التطور التاريخى ، ولذلك تعكس لنا اللغة دائما حال المجتمع وصورته ، من تخلف أو حضارة ، ومن رقى أو انحطاط ، ومن هنا كان من اليسير على الباحثين معرفة حقيقة أى مجتمع من خلال النظر فى لغته ، التى هى سجل أمين لكل تفصيلات حياته الاجتماعية .

والمجتمع اللغوى ليس مجتمعا معزولا عن سائر المجتمعات ، وإنما هو يعيش وسط خضم من اللغات المختلفة ، والجماعات المتباينة ، وهو مضطر ، خضوعا لسنة الحياة ، أن يخالط هذه المجتمعات ، وأن يطلع على ما لديها ، وأن ينشىء صلات سياسية واقتصادية وثقافية بالقريب منها والبعيد ، ولعل هذا الجانب هو أهم ما تكشف عنه الجغرافيا اللغوية ، حين تنجز خرائطها ، وترسم حدود الظواهر اللغوية أو اللهجية ، فى تماسها أو اختلاطها .

والعلاقات بين المجتمعات المختلفة لا تدوم على حال واحدة ، وإنما هى تتقلب بين الود والصدام ، والحرب والسلام ، ولكل معركة ظروف ، ونتائج ، أبسطها النتائج العسكرية ، وأهمها وأخطرها النتائج الاجتماعية التى تشمل التأثير فى اللغة ، ذلك الكائن الاجتماعى .

ومعنى ذلك أن الاحتكاك بين المجتمعات قدر من الأقدار الحضارية التى تؤثر فى حياة اللغة بالسلب أو بالإعطاء ، وبالتقوية أو بالإفناء . وللاحتكاك صورتان :

الأولى : الصورة العنيفة التى تتمثل فى الحروب بين مجتمعين من لغتين مختلفتين .

والثانية : الصورة الهادئة التى تتمثل فى قيام علاقات صداقةوجوار بين هذين المجتمعين ، وإليك حديثا مفصلا عن كلتا الصورتين .

obeikandl.com

الحالة الأولى : حالة الغزو المسلح

قد يحاول مجتمع ما أن يغزو مجتمعاً آخر، بوساطة القوة الحربية ،وتنتهى المحاولة ـ افتراضاً ـ بانتصار الغازى ، بفضل ماتوفر لديه من جند ومعدات ، وظروف زمنية ساعدت على تمام نصره ، ويلقى المجتمع المهزوم السلاح ، ويستسلم للوضع الجديد .

وقد يحدث على إثر هذا الانتصار أن تهاجر مجموعات من الشعب الغازى إلى الأرض الجديدة المقهورة ، وهى تنطق بلغة غير لغة أصحاب البلاد ، وهنا يبدأ ـ مع مرور الوقت ـ صراع بين اللغتين ، الغازية والمغزوة ، وليس من الضرورى أن ينتهى هذا الصراع بنفس نتيجة المعركة الحربية ، لأن للصراع اللغوى ظروفه الخاصة به ، والتى تختلف اختلافاً كبيراً عن طبيعة المعارك الحربية . والشعب المقهور قد يكون أصلب عوداً فى تمسكه بلغته منه فى تمسكه بسلاحه ، وقد يكون مستسلماً على طول الخط .

والنهاية أحد احتمالين : فإما أن تنتصر إحدى اللغتين على الأخرى ، فتصبح لغة مشتركة بين جميع السكان ، غازيهم ومغزوهم ، وإما أن تضعف كل منهما عن هزيمة الأخرى فتتعايش اللغتان على صعيد واحد .

وعلى أية حال فإن الذى يتحكم فى هذه النتيجة ليس قوة الجيش ، ولا روعة الانتصار فى المعركة الحربية ، وإنما الذى يتحكم أحد عاملين ، أو هما معا ، وذلك من الوجهة النظرية :

العامل الأول : درجة الحضارة ، وهو (الكيف) ، إيجاباً أو سلباً . وهو فى الواقع العامل الجوهرى .

العامل الثانى : عدد الغزاة ، وهو (الكم) .

فإذا تساوى الشعبان فى عدم الحضارة : بأن كانا متخلفين بدائيين ، فإن نتيجة الصراع تتوقف حينئذ على كثرة العدد وقلته ، فالنصر يكون للأكثر عدداً ، لأن العدد القليل سوف يغرق وسط طوفان بشرى ، فلن يظهر له أثر . والسر فى ذلك أن العدد الكبير سوف يشعر بأنه متحصن وراء لغته ، على حين تفنى الأقلية التى لاوزن لها من الناحية الثقافية ، فهى لن تحدث أثراً ، ولن تبذل مجهوداً فى ذلك الصراع ، والنتيجة فى هذه الحال طبيعية . ويزيد من سرعة الانتصار أن تكون اللغتان المتصارعتان من فصيلة واحدة ، أو من فصيلتين متقاربتين .

وقد حدث فى الواقع مثل هذا حين نزح الإنجليز السكسونيون ، من أواسط أوربا إلى انجلترا ، فتغلبت لغتهم على اللغات السلتية ، التى كان يتكلمها السكان الأصليون ؛ وذلك لأن عدد السلتيين بهذا الإقليم كان قليلا بالقياس إلى عدد المغيرين ، وكلا الشعبين كان همجياً بدائياً ، ومن ثم انتصرت لغة الأكثرين على لغة الأقلين ، التى هى من نفس فصيلتها : الهندية الأوربية .

فهذا مثال على انتصار لغة الشعب الغازى .

وحينما غزا النورمانديون انجلترا ، واحتلوا معظم أقاليمها ، كانوا هم فى الواقع قلة بالقياس إلى عدد الشعب المقهور ، ولذلك لم تلبث لغة النورمانديين أن تلاشت أمام اللغة الانجليزية ، فأصبح جميع السكان يتحدثون الإنجليزية ، سواء منهم الإنجليزى الأصل ، أو النورماندى الأصل[1] . ويلاحظ أن كلا

(١) علم اللغة للدكتور وافى / ٢٠٩

الشعبين كان مجرداً من الثقافة الراقية فى ذلك العهد ، كما أن لغتيهما تنتميان إلى فصيلة واحدة ، هى الفصيلة الهندية الأوربية .

فإذا اختلفت اللغتان من حيث أصلهما كان من الصعب تغلب إحداهما على الأخرى ، حتى مع توفر العدد فى أحد الجانبين عنه فى الجانب الآخر .

وإذا كان أحد الشعبين متفوقا فى درجة الحضارة عن الشعب الآخر ، فإن التفوق الكيفى يكتسح أمامه أى تفوق كمى ، فى أى جانب كان . فإذا كانت الحضارة للشعب الغازى اكتسحت لغته لغة الشعب المقهور ، مهما يكن عدد النازحين منه إلى الأرض الجديدة قليلا ، ولكن يشترط فى هذه الحالة أن يطول زمن سيطرته على هذه الأرض ، حتى يمكن تحقيق نتيجة حاسمة للصراع اللغوى ، كما أنه لابد من استمرار إقامة مجموعة كبيرة من أبنائه بين مجموعات الشعب المغزو ، وتحاول هذه المجموعة الاختلاط بأفراد الشعب ، على جميع مستويات الاتصال ، اجتماعياً وثقافياً .

والسر فى ذلك ظاهر جداً ، لأن الشعب الغالب يملك إلى جانب قوته المادية قوة حضارة لاتتوفر أدواتها للشعب المغلوب ، ومن الضرورى لفائدة الصراع أن يتحول من المستوى العسكرى إلى المستوى الحضارى ، الذى يدرك المغلوبون خلاله أنهم بحاجة إلى استيعاب أصول الحضارة الجديدة وقواعدها ومظاهرها .

ومن لوازم كل حضارة جديدة أنها تصطحب معها ثروة فى الكلمات الخاصة بالتعبير عن أشيائها ، وعن أفكارها . والأشياء فى الحضارات دلائل على الأفكار ، ومن هنا تصبح محاولات الحضارة الجديدة أشبه بدروس

وتعاليم يلقّنها أفراد الشعب المغلوب ، ويحاولون تمثلها واتباعها ، ابتداء من مجرد الإعجاب بها ، إلى حد اعتقادها والدفاع عنها ، وهكذا يتم للغالبين السيطرة والانتصار فى المعركة اللغوية ، بسيادة لغتهم على لغة المغلوبين ، مهما يكن عددهم كبيراً ، فالكم لاقيمة له بجانب الكيف .

ومن الأمثلة على ذلك أن فتوح الرومان فى وسط أوربا وجنوبها وشرقها تبعها تغلب اللغة اللاتينية على اللغات الأصلية لإيطاليا وأسبانيا وبلاد الغال (فرنسا الآن) ، مع أن الرومان الغزاة كانوا أقلية بالنسبة إلى السكان الأصليين فى هذه المناطق الشاسعة .

ونحن نعرف جميعاً ما أحدثته فتوحات العرب فى صدر الإسلام للشام والعراق ومصر والشمال الإفريقى ، فقد اكتسحت العربية أمامها اللغات التى كانت سائدة فى تلك البقاع الواسعة ، والأوطان المتناثرة : اكتسحت الآرامية فى الشام والعراق وفلسطين ، واكتسحت القبطية فى مصر[1] . واكتسحت البربرية فى الشمال الإفريقى ، والكوشية فى الشرق ، وحلت محل هذه اللغات فى أوطانها .

والسر فى ذلك كما نعلم أن العرب كانوا دعاة حضارة جديدة يحملها دينهم الجديد ، على حين كانت هذه الأمم رازحة تحت نير الاستعمار الرومانى أو الفارسى ، الذى وثب إليها فى غفلة من الزمن ، وجهالة من أصحابها ، فلم تكن الشعوب فى تلك البلاد ذات رسالة حضارية ، وإنما كانت تستشعر

---

(١) انظر مقدمات فتح العرب لمصر ، والتى تمثلت فى هجرات كبرى تاريخية إليها إبان العصر الجاهلى فى كتاب (البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب) للمقريزى ، مع دراسات عن تاريخ العروبة فى وادى النيل ؛ الدكتور عبد المجيد عابدين /٧٧ ومابعدها .

المهانة والذل ، من تصرفات المستعمرين المستبدين ، فلما جاء العرب ، وهم ولا شك قلة بالنسبة إلى أى شعب من هذه الشعوب ، جاءوا وفى أيديهم مشعل الحضارة والإيمان ، مشعل العدالة الاجتماعية ، والمساواة بين الناس . دون نظر إلى الجنس أو اللون أو المستوى المادى ، مشعل الحرية والأخوة الإنسانية ، والتعاليم الأخلاقية ، فاستهوت دعوته القلوب . ولذلك هبت الشعوب من فورها مستجيبة لداعى الحضارة الجديدة ، ولغتها الجديدة أيضاً .

ويذكر الدكتور على عبد الواحد وافى أن انتشار اللغة العربية فى مصر كان بطيئا طوال القرن الهجرى الأول ، وقبيل نهاية هذا القرن ، أى فى سنة ٨٧ هـ ، وفى ولاية عبد الله بن عبد الملك على مصر ، من قبل أخيه الوليد ابن عبد الملك بن مروان ، أمر بالدواوين فنسخت بالعربية ، وكانت من قبل تكتب بالقبطية ، ثم نقل نصاً آخر عن دائرة المعارف الإسلامية : « أن الدواوين فى مصر كانت تكتب باليونانية لا القبطية » وهو الأصح ، وظل التحول من الكتابة باليونانية فى الدواوين ، والتحدث بالقبطية ، إلى الكتابة والتحدث بالعربية بالتدريج خلال القرون الثلاثة الأولى للهجرة ، حتى كان القرن الرابع كانت غالبية الشعب المصرى تتكلم العربية ، ولا يفهم أفرادها القبطية ، بدليل أن رجال الكنيسة أنفسهم اضطروا فى هذا القرن الرابع أن يلقوا مواعظهم فى الكنائس باللغة العربية ، وليس معنى ذلك أن القبطية كانت قد انقرضت كل الانقراض فى هذا العصر ، فالحقيقة أنها ظلت باقية فى ألسنة بعض المناطق مدة طويلة بعد ذلك . بدليل ما يذكره المقريزى من أن المأمون كان ينتقل فى ريف مصر ومعه مترجم[1] .

---

(١) المرجع السابق / ٢١٢ هامش

وهذا الذى يذكره الدكتور وافى يدلنا على أن انتصار اللغة الغالبة ، برغم ما تحمل من دعوة حضارية يحتاج إلى عدة قرون ، وأن المعركة تستمر عدة أجيال كثيرة ، إلى أن يستتب لها الأمر ، بعد أن تمر بمراحل كثيرة .

بيد أن هذا الانتشار الساحق للعربية ، والذى ارتبط بدعوتها الحضارية ارتباطا سافرا ، لا يعجب اللغوى فندريس ، الذى يقرر أن هناك عنصرا عاطفيا قد يتصدر أسباب انتصار بعض اللغات ، وهذا العنصر العاطفى ينحصر فى الهيبة التى تتميز بها بعض اللغات ، وضرب لذلك مثلا بحال اللغة الإغريقية فى مواجهة الغزو التركى ، وذلك لأن إرادة الإغريق فى ألا يضحوا بلغتهم أمام لغة فاتح يحتقرونه هى التى حفظت الإغريقية خلال العصور ، فلم تستطع التركية يوماً أن تحل محلها ، أو حتى تنال منها ، برغم سيطرة اللغة التركية على الأجهزة الإدارية[1] .

كذلك يرجع إلى هذه الهيبة انتصار اللغة اللاتينية فى المجال الذى غزته جحافل الرومان فى أوربا ، فما كان للاتينى أن يرضى بتعلم إحدى اللغات المتبربرة ، ولذلك قضت اللاتينية فى إيطاليا نفسها على الأترسكية والأسكية والأمبرية .

ولكنه يعود فيربط هذه الهيبة بمعنى الحضارة التى يمثلها أصحاب اللغة المهيبة ، فيقول : كثيراً ما يكون لهيبة اللغة ما يبررها من قيمتها الذاتية ، وهذه القيمة فى حالة اللغات الإغريقية تعتبر شيئاً كبيراً ، لأنها تفوق بكثير كل ما يمكن أن يضاف للغة التركية من فضل ، فالتركية ، وهى لغة الفاتحين ،

---

(١) اللغة / ٣٠١

ليست بأية حال من لغات الحضارة ، وما كانت تستطيع الكفاح ضد اللغة الإغريقية التى تمثل ثقافة من أعرق الثقافات ، وربما كان لفندريس حق ما فى هذا التفسير للصراع التاريخى بين التركية والإغريقية .

لكننا نجده بعد ذلك يتعجب من القدرة على الانتشار التى حققتها بعض اللغات الهندية — الأوربية ، أو السامية كاللغة العربية ، وهى ترجع بلاشك — كما قال — إلى أسباب معقدة[١] !!

فما هذه الأسباب المعقدة ؟ — لقد حاول فندريس أن يغمض عينيه عن جوهر الحضارة الذى حملت العربية رسالته ، وتولت مهمة البيان عنه أمام الإنسانية كلها ، وذلك الجوهر هو (الإسلام) ، وليس الإسلام (بالأسباب المعقدة) ، ولكن الطريقة الأوربية فى النظر إلى تاريخ البلاد الإسلامية والعربية هى المعقدة .

والعجيب أن فندريس على جلالة قدره يعمى عن الحقيقة فى صراع التركية مع الإغريقية ، فيرجع ذلك إلى تفوق الإغريقية حضاريا ، وعجز التركية وانحطاط مستواها . برغم أنها لغة الفاتحين ، وهو فى هذا يتجاهل — عن عمد — حقيقة فرضت نفسها على أقدار أوربا قرونا عديدة ، هذه الحقيقة هى أن الأتراك كانوا أرقى من اليونانيين حضاريا ، لأنهم كانوا يحملون رسالة الإسلام ، وقد كانت تركيا بالإسلام أرقى وأقوى الأمم الأوربية . لقد كان الأتراك أسرع شعوب أوربا استجابة لرسالته ، غير أنهم لم يحسنوا حمل هذه الرسالة[٢] ، وأضعف من قدرتهم على الانتصار فى الصراع اللغوى

---

(١) السابق

(٢) حمل الأتراك الإسلام كسلطة زمنية ، ولم يمثلوه كقيم حضارية . وبذلك تحولوا بعد مرحلة قليلة نسبياً إلى قوة بطش وطغيان ، بعيدة عن المغزى الحضارى والروحى لرسالة الإسلام التى جاءت رحمة للعالمين .

أن لغتهم لم تكن لغة الحضارة التى يمثلونها ، بل كانت مزيجا مختلطا من ألفاظ تركية أصيلة تنتمى إلى الفصيلة الطورانية، وأخرى عربية إسلامية تنتمى إلى الفصيلة السامية ، وما كان لهذا الخليط الملفق أن ينتصر على كل منسجم متوافق ، منتم إلى أصل واحد ، هو اللغة الإغريقية ، فهزيمة التركية فى هذا الصراع ترجع إذن إلى أسباب لغوية أكثر من أن تكون حضارية.

وقد كان اختلاط التركية بالعربية فى أصواتها ، وفى ألفاظها ، وفى رموزها الكتابية يكاد يفصلها عن فصيلتها الطورانية، ليلحقها بالفصيلة السامية. وقد سبق أن قررنا أن الانتصار فى الصراع اللغوى يكون أيسر إذا ما كانت اللغتان المتصارعتان من فصيلة واحدة ، وهو مالم يتوفر فى حالة الصراع بين التركية والإغريقية ، فالتركية طورانية ، والإغريقية هندية ـ أوربية .

وأغلب الظن أن هذا الصراع لو نشب بين العربية ، وهى لغة الحضارة الإسلامية ، وبين الإغريقية ، على ما تتمتع به من أصل عريق ـ لتغلبت العربية على الإغريقية ، واكتسحتها فى مواطنها ، كما محت كل أثر لها من مصر ، أرض الاحتلال الإغريقى . والسبب فى ذلك حينئذ هو تفوق المفهوم الحضارى لدى العرب عن المفهوم الحضارى عند اليونانيين ، وارتقاء اللغة العربية ارتقاء حضاريا عن اللغة الإغريقية ، وهى نتيجة غير مستبعدة الحدوث برغم اختلاف اللغتين من حيث أصلهما .

فإذا حدث العكس ، وهو أن يكون الشعب المغزو أرقى حضارة من الشعب الغازى ، فإن النتيجة حينئذ بدهية ، وهى استحالة انتصار الهمجية ولو غلبت ، على المدنية ولو قهرت ، فهذا الانتصار مؤقت دون شك ولا بد أن يسترد الشعب المتحضر المقهور شخصيته ، عاجلا أو آجلا .

والاحتمال الثالث فى هذه القضية هو أن يكون الشعبان ذوَىْ حضارة عريقة ، فلغة كل منهما قوية راقية . وحينئذ لا يمكن أن نجد لهذا الصراع أى أثر لغوى ، وإنما يكاد ينحصر أثره فى الميدان الاقتصادى أو السياسى .

ومن الأمثلة على ذلك صراع الألمانية مع الفرنسية فى داخل سويسرا ، ففى الشعب السويسرى قسم يتحدث الفرنسية ، وقسم آخر يتحدث الألمانية ، وكل ما يحدث هو أن تطرد الألمانية الفرنسية من إحدى القرى ، أو العكس ، دون أن يقال : إن الصراع بين اللغتين قد أضفى أثراً معينا على إحداهما من من الأخرى .

وليس هنالك مقياس معين يفرض إحدى اللغتين على السكان ، دون الأخرى ، فاللغتان فى حالتنا هذه متساويتا القوة ، ولكن المصلحة العملية لسكان القرى هى وحدها الحكم فى مثل هذه الحالة ، وهى التى تحكم لهذه اللغة أو تلك ، وقد تبقى اللغتان زمناً طويلا فى حالة تعادل .

ولقد يكون للعامل السياسى أثر كبير فى حسم نتيجة الصراع اللغوى ، حتى بين اللغتين غير المتكافئتين ، وقد برز هذا العامل فى العصر الحديث ، حين وجدنا كثيراً من الشعوب المستعمرة ، والمتخلفة ، تعمد إلى إحياء لغتها ، كوسيلة إلى بعث شخصيتها ، وقصدا إلى إذكاء روح الكفاح فى الأفراد من أبنائها ، فى مواجهة لغة المستعمرين المتحضرين . وقد قفز الوعى بأهمية اللغة فى الصراع من أجل الحرية قفزة عظيمة فى السنوات الأخيرة ، وخرجت إلى الوجود لغات إفريقية وآسيوية ما كان لها أن تنبعث ، لولا الشعور بالحاجة إلى درع لغوى يتحصن به الكفاح السياسى .

فني حالة الجزائر مثلا سيطر الاستعمار عليها مائة وثلاثين عاما ، حاول خلالها أن يدمر كل رابطة تربطها بالإسلام والعربية ، لينفرد بها لقمة سائغة، وقد كان لدى الفرنسيين تخطيط شامل لهذا التغيير الجذرى ، يبدأ بالطفل الجزائرى ، إلى أن يصبح الطفل رجلا كبيراً متعاملا مع المستعمرين بلغتهم وبأسلوبهم ، يؤازرهم فى ذلك تفوق فى المفهوم الحضارى ، وهجرة هائلة غطت التراب الجزائرى كله ، وسياسة تقضى على كل أمل فى تدارك الخطر . حتى لقد سادت الفرنسية كل مستويات النشاط الثقافى ، فكان المفكرون والأدباء والصحفيون ، ومن دونهم من أبناء الشعب ـ يتكلمون ويستعملون الفرنسية رسمياً وشعبياً ، و يجهلون العربية ، إلا بضع كلمات .

غير أن بعض المصلحين الجزائريين ، وعلى رأسهم الشيخ عبد الحميد بن باديس ، أدركوا أن المعركة من أجل الحرية يجب أن تبدأ باستعادة اللسان العربى ، فأنشأ الرجل (جمعية العلماء) التى أنشأت الكتاتيب فى المساجد والزوايا ، لتعليم اللغة العربية ، وتحفيظ القرآن الكريم ، وأقبل الناس على هذه الكتاتيب ، مضحين بكل الميزات التى ضمنها المستعمر لرواد مدارسه ، كانت هذه فى الواقع بداية النهاية للاستعمار فى أرض الجزائر ، وهى الأرض الصلبة التى جرت عليها المعركة الضارية قرابة ثمانى سنوات من الثورة المسلحة.

وهاهى ذى معركة التعريب فى الجزائر على قدم وساق ، تحاول أن تضع اللمسات الأخيرة لرسم وجه الجزائر العربى المسلم ، على رغم تشويه الاستعمار وتشويشه أيضاً ، فقد استرد الشعب الجزائرى روحه حين استرد لسانه العربى .

ولقد نجد مثالا آخر من هذا القبيل فى الصومال ، حيث كانت تسيطر إيطاليا وفرنسا ، وحيث حاول الاستعمار فرض لغته على أبناء البلاد ، فإذا

بهم وقد نالوا حريتهم يحاولون بعث اللغة الصومالية ، التى لم تكن إلى عهد قريب لغة مكتوبة ، وهم يحاولون وضع نظام كتابى لها على أساس الرموز اللاتينية ، لتصبح من بعد ذلك لغة الدولة الصومالية ، بعد أن فشلت للأسف محاولة وضع نظام عربى لكتابتها . لأسباب لعب فيها الاستعمار دوره ، وأكملت الماركسية بقية المهمة ، لتفصم ما بين الشعب الصومالى ودينه ولغته .

فهذه هى المظاهر العامة للصراع اللغوى ، الذي يبدأ بغزو يعتمد على القوة المسلحة ، ثم تحدث من بعده هجرات ذات طابع معين ، وهذه هى القواعد التى تحكم ذلك الصراع .

obeikandl.com

الحالة الثانية : حالة الجوار بين اللغات

والصراع فى هذه الحالة سلمى ، لا تتحكم فيه عوامل هزيمة عسكرية ، ولا غطرسة فاتحين منتصرين ، وإنما يتحكم فيه بالدرجة القصوى مسألة تفوق إحدى اللغتين حضارياً عن الأخرى ، كما قد يؤثر فيه التفوق العددى .

فمن حالات هذا الصراع أن ينمو أحد الشعبين نمواً كبيراً ، حتى تضيق به المساحة التى يشغلها فتفيض منه موجات هجرة إلى الأراضى المجاورة ، التى يشغلها شعب آخر ذو لغة مخالفة ، وهنا يحدث احتكاك وصراع لغوى ، تكون الكلمة الفاصلة فيه لأكثر الشعبين عدداً ، أو لأوفرهما قسطا من الحضارة .

وعامل الحضارة فى هذه الحالة عامل مهم ، وذو تأثير خطير ، يفوق تأثير العدد الكبير ، ذلك لأن الحضارة قادرة على امتصاص التأثيرات المخالفة لمجالها ، وتمثلها .

ومن حالات هذا الصراع أيضاً أن يؤثر شعب على شعب مجاور له بنفوذه السياسى ، فتتغلب لغة الشعب ذى النفوذ الأقوى ، ومن أمثلة ذلك ما يحدث الآن بين اللغة الروسية والشعوب التى يقوى فيها نفوذ الاتحاد السوفيتى ، وبخاصة فى ولاياته الآسيوية ، فلا ريب أن لغات عديدة قد انقرضت ، أو هى فى طريقها إلى الانقراض بتأثير النفوذ الروسى على حياة هذه الشعوب ، وهو نفوذ يقوم على الانتصار للإيديولوجية الشيوعية ، وإذابة

ما عداها من عقائد [١] ، متخذا من اللغة الروسية أمضى أسلحته على الإطلاق .

وقد قام بعض اللغويين بدراسة تأثير اللغة الفرنسية ، وهى لغة مشتركة تمثل مدنية منظمة تنظيما قوياً ، على مجموعة اللهجات المحلية ، واختار منها اللهجة البريتانية الشائعة فى مقاطعة بريتانيا ، وذلك فى ضوء دراسة العلاقة بين اللغتين الفرنسية والألمانية فى سويسرا ، فقرر أن كلتا الحالتين لاتشبه الأخرى ، إذ أنه فى حالة الفرنسية والألمانية تتقدم اللغتان وتتقهقران ، على نحو ما يفعل جيشان متجابهان ، فتأخر إحداهما أو تقدمها معناه انتقال فى الحدود . أما الحدود اللغوية بين البريتانية والفرنسية فلم تكن تتغير منذ قرون ، رغم التقدم الأكيد الذى ربحته الفرنسية فى بريتانيا .

ففى بريتانيا توغلت الفرنسية فى كل اللهجات دون استثناء ، واللغة المدنية تحمل معها تيارا جارفاً من الكلمات الجديدة ، التى تمثل أشياء وأفكارا وعادات جديدة ، كما أن الآداب والدين قد ملآ البريتانية بالكلمات الفرنسية ، وذلك منذ نهاية القرن الخامس عشر ، وهذا آت من أن الفرنسية هى التى تقدم للبريتانيين بالطبع نماذج لكتب العبادة المذيب ، فظلت البريتانية تنحصر شيئاً فشيئاً فى الاستعمالات الزراعية والخاصة ، وأخذت الخدمة العسكرية ، وتعليم الفرنسية فى المدارس ، يعجلان هذه الحركة منذ نصف قرن [٢] .

(١) يظفر الإسلام فى ولايات الاتحاد السوفيتى بنصيب كبير من الحرب ، وتعمل اللجان الخاصة التى يؤلفها الحزب الشيوعى هناك على تلحيد المسلمين ، وهناك أيضاً ما يسمى بأكاديمية الإلحاد لإعداد المناهج العلمية متى أجل القضاء على الإسلام فى الولايات الإسلامية ، توقياً للخطر العقائدى الذى يمثله وجود الإسلام فى نظر الماركسيين ، فهو البديل الوحيد المتفوق على سائر إيديولوجيات البشر .

(٢) اللغة / ٣٥٣

وهناك أمر هام هو أن توغل الفرنسية ظل زمنا طويلا يقوم على نوع من التسرب غير المحسوس ، إذ كانت البريتانية تتلقى على غير شعور منها عدداً من الكلمات الفرنسية يزداد يوما بعد يوم ، ولكن البريتانيين كانوا يوالون الكلام بالبريتانية ، ولو طعمت بالكلمات الفرنسية .

أما اليوم فقد أصبحت غالبية البريتانيين العظمى تتكلم اللغتين ، ومن ثم انتقل ميدان المنافسة بين اللغتين إلى أذهان المتكلمين أنفسهم على شكل ما ، وفى هذه المنافسة خطر على البريتانية ، إذ أن الفوائد التى يمكن الحصول عليها من معرفة الفرنسية تفوق كثيرا تلك التى يمكن الحصول عليها من معرفة البريتانية وحدها ، هذا إلى أن الفرنسية لغة بورجوازية ، وتستعمل دون سواها فى مجتمعات المدن ، فهى تغرى بنات الحقول بالتكلم بها ، كما تغريهن ثياب الطبقة الراقية بلبسها ، يضاف إلى ذلك أن روابط السكان البريتانيين بالمجتمع البورجوازى تزداد يوما بعد يوم ، فمنهم الموظفون ، وخدم المنازل الذين يتكلمون الفرنسية مع مخدوميهم ، وقد جعل اتساع السياحة من الأجنبى ومن البورجوازى مورد رزق المواطنين ، وهذا يجعل التكلم بالفرنسية ميزة وضرورة فى آن واحد . إلى غير ذلك من صور الاتصال بين اللغتين ، والصراع بينهما .

وهكذا صارت الفرنسية لغة مشتركة بالنسبة لمقاطعة بريتانيا ، فى حين أن البريتانية بلهجاتها المتعددة لم تصل يوما إلى هذا المركز ، فالتناحر بين البريتانية والفرنسية يرجع إذن فى نهاية الأمر إلى فعل الأسباب الاقتصادية[1] .

---

(١) السابق

هذه الصورة عن صراع اللغتين صراعا سلميا يمكن أن نتصور مثيلتها هنا ، فى مصر ، فإلى جانب العربية التى يتحدث بها أغلب السكان نجد أن هنالك لغة أخرى يتخاطب بها مجموعة من الشعب ، هى اللغة النوبية ، ويمكن قياس مركز هذه اللغة بالنسبة إلى العربية بمركز البريتانية بالنسبة إلى الفرنسية .

غير أن اللغة النوبية كانت إلى زمن قريب جدا معزولة عن مجال تأثير العربية عزلا يكاد يكون تاما ، وذلك فى الأراضى والجبال التى غطاها الآن النيل ، فى بلاد النوبة ، بعد بناء السد العالى ، وقد كان وضعها هذا المنعزل يفرض عليها أن تبقى بعيدة عن تأثير العربية قليلا ، إذ لم يكن يتأثر بالعربية سوى أولئك الذين وفدوا إلى القاهرة يمارسون فيها بعض الأعمال ، وهؤلاء لا يعودون إلى النوبة القديمة إلا على فترات متباعدة ، ولأيام معدودة ، ومن هنا كان تأثير العربية فيما يبدو ضعيفا فى النوبية .

أما الآن ، وبعد أن تم تهجير شعب النوبة إلى الأرض الجديدة ، شمالى أسوان ، فإن تاريخا جديدا قد بدأ فى حياة هذا الشعب يفرض عليه الاحتكاك والاتصال بالشعب العربى فى الوجه القبلى ، وأغلب الظن أن وضع اللغة النوبية سوف يتغير بعد عدة أجيال .

غير أننا نرى أن تأثير الحياة والصراع الجديدين سوف يكون بطيئا جدا ، نظراً لتأخر المستوى الحضارى فى هذه البقاع عن المستوى الذى بلغته القاهرة ، اللهم إلا إذا نظمت حملات إعلام ، واستغلت أعمال التعمير

والإنشاء ، المتنامية فى المنطقة ، فى إضافة المزيد من القيم الحضارية إلى حياة الشعب النوبى بوجه خاص ، والشعب القبلى بوجه عام .

ولا شك أن حالة لغوية كهذه جديرة أن تتابعها الدراسات اللغوية الحديثة ، وأن تلاحظ فيها ظواهر الصراع وخفاياه ، وهى فرصة يمكن أن تلتقى أضواء كاشفة على ما أمكن التوصل إليه من حقائق ونظريات عن الصراع اللغوى فى العصر الحديث .

obeikandl.com

نتائج الصراع اللغوى ومراحلها

هذا الصراع الذى اختلفت ضروبه وظروفه ، لايحقق نتائجه من انتصار اللغة الغالبة على اللغة المقهورة دفعة واحدة ، فقد سبق أن ذكرنا أن ذلك قد يستغرق فى بعض الحالات قروناً طويلة ، فى حالة انتماء اللغتين إلى فصيلة واحدة ، والأمر أعسر من ذلك بكثير فى حالة اختلافهما .

وإلى جانب العنصر الزمنى وأهميته فى الصراع اللغوى وجدنا عنصر الحضارة ذا تأثير حاسم فى مصيره ، إذ أنه إلى جانب هذا العنصر تهون قيمة التفوق العددى ، كما أنه فى حالة انعدام الحضارة لدى الجماعة اللغوية الغازية لا يمكن أن يؤتى الصراع نتيجته المرجوة إلا إذا تشابه المغلوبون مع الغالبين فى عدم الحضارة ، وبذلك يكون النصر للأكثرين عدداً ، ومن هنا نعلم أن أهم عوامل النصر فى الصراع اللغوى هو : الحضارة ، وأهم شرط لتحقيق هـذا النصر هو : الزمن ، ويأتى التفوق العددى من حيث قيمته التأثيرية فى المرحلة الأخيرة .

وبقى أن نعرف المراحل التى يتم بها انتصار لغة على أخرى ، وقد حددها الدكتور وافى [1] بثلاث مراحل :

١ — المرحلة الأولى :

وتقذف فيها اللغة الغالبة اللغة المغلوبة بطائفة كبيرة من مفرداتها ، وهى الـكلمات التى تمثل بالأخص الجانب الحضارى ، الذى لم يألفه المغلوبون

(١) علم اللغة السابق

ولا ارتقوا إلى مستواه ، ويشمل ذلك أسماء المخترعات والآلات ، كما يشمل العادات المخالفة ، والتقاليد الرسمية والشعبية ، ومصطلحات العلوم ، وألفاظ الحضارة ، وبذلك يضعف المتن الأصلى للغة المغلوبة ، ويتجرد من كثير من مقوماته .

ولكن اللغة المغلوبة تظل طوال هذه المرحلة محتفظة بقواعدها ، ومخارج حروفها ، وأساليبها فى نطق الكلمات ، فيؤلف أهلها عباراتهم ، ويصرفون مفرداتهم وفقا لقواعدهم التنظيمية والصرفية ؛ وينطقون بألفاظهم الأصيلة وما انتقل إليهم من ألفاظ دخيلة طبقا لأسلوبهم الصوتى ، ومخارج حروفهم حتى إنهم ليستبدلون ، فى الكلمات الدخيلة ، بالحروف التى لا يوجد لها نظير لديهم ـ حروفا قريبة منها ، من حروف لغتهم .

وقريب من هذا ما نصت عليه كتب اللغة من أن العرب (مع الفارق فى القياس) كانوا ـ إذا عرضت لهم كلمة من الفارسية أو اليونانية مشتملة على صوت لا يوجد مثله فى حروف الهجاء العربية ـ ينطقون الصوت الغريب فى صورة أقرب الأصوات إليه فى لغتهم . وقد أشار إلى ذلك أبو الحسين أحمد بن فارس فى كتابه (الصاحبى) حين قال فيما رواه عن ابن دريد : حروف لا تتكلم بها العرب إلا ضرورة ، فإذا اضطروا إليها حولوها عند التكلم بها إلى أقرب الحروف من مخارجها ، فمن تلك الحروف الحرف الذى بين الباء والفاء مثل (پور) إذا اضطروا فقالوا : (فور)[1] ، وهى بالفارسية تعنى : الولد أحيانا[2] .

٢ — والمرحلة الثانية :

تتسرب إلى اللغة المغلوبة أصوات اللغة الغالبة ، ومخارج حروفها ،

(١) الصاحبى / ٢٤ ـ ٢٥

(٢) المعجم فى اللغة الفارسية الطبعة الأولى ٨٦

وأساليبها فى نطق الكلمات ، فينطق أهل اللغة المغلوبة بألفاظهم الأصيلة ، وما انتقل إليهم من ألفاظ دخيلة من المخارج نفسها ، وبالطريقة نفسها التى يسير عليها النطق فى اللغة الغالبة .

ولا شك أن هذه المرحلة لا تأتى إلا بعد الإلف الطويل ، والمخالطة الدائمة بين المتكلمين باللغتين ، فيزداد بذلك تشبع الناس بالتقاليد النطقية الجديدة ، ويزداد تمثلهم لألفاظ اللغة الغالبة . فيأتون بها على وجهها الصحيح ، أو قريبا منه ، ومن هنا يزداد أيضا ابتعادهم عن تقاليدهم النطقية الأصيلة ، وينحل النظام الصوتى ليحل محله بالتدريج تلك النظم الدخيلة .

غير أن اللغة المغلوبة فى هذه المرحلة تحاول أن تقاوم الغزو اللغوى المتزايد فيتشبث أهلها بقواعد تصريفهم للكلمات ، وقواعد تركيبهم للجمل ، وبما امتازت به لغتهم من عبارات مأثورة ، وأمثلة محفوظة ، تحمل فى نظرهم خلاصة تجارب القرون ، فيظلون يتمثلونها فى مواقفهم ، كبقية من البقايا الثمينة التى يفزعون إليها ، ولكن ذلك لا يمنع طغيان التيار الغازى ، وتدفق موجاته العارمة فى محاولة للقضاء على هذه المقاومة .

٣ — والمرحلة الثالثة والأخيرة :

هى التى تنهار فيها مقاومة اللغة انهيارا تاما ، فتستسلم للصراع ، وتسقط معاقلها المتبقية ، معقلا فى إثر معقل ، إلى أن يسقط معقل القواعد النحوية ، وبذلك يسدل الستار عن فصل تاريخى من فصول الصراع اللغوى ، بين لغة منتصرة فرضت نفسها ، ولغة مهزمة انسحبت من المجال ، أو على الأصح ماتت على ألسنة أصحابها ، وانقرضت انقراضاً يكاد يكون كاملا .

على أن هناك حقيقة ينبغى أن نتذكرها دائما ، هى أن اللغة التى أصبحت

مغلوبة لا يقضى عليها قضاء تاما ، وإنما الملاحظ أنه لا بد أن تؤثر هى الأخرى فى اللغة الغالبة ، وأن تترك فيها بعض بصماتها ، لأن المتكلمين الجدد يتميزون ولا شك ببعض الصفات النطقية ، التى تطبع نطقهم بكلمات اللغة الجديدة ، فالصورة التى سوف ينطقون بها هذه اللغة لا بد أن تكون متأثرة بهذه الصفات ، وحينئذ يمكن أن نقرر ظهور صورة جديدة قد تطورت إليها اللغة الغالبة على ألسنة المغلوبين .

obeikandl.com